الحلقة الثالثة

في صالون العقاد: كانت لنا أيام

جمعية للمفكرين الأحرار؟!

أنيس منصور

التحرير

هناك أيام أخرى كانت تشغلنا غاما. ولكن أخطر هذه الأيام وأعمقها هو يوم نلتقى الأستاذ فى ندوته.. حيث الجمال والجلال معا. جمال العبارة وجلال الفكر. حيث الله والحب والخير والجمال فى عبارة واحدة. وفى حكاية واحدة. ويقوم الأستاذ بوضع الحدود بين المعانى.. الحدود الحريرية. والفواصل الحديدية.. فتلك مقدرته الفذة التى لم نجد لها نظيرا عند أحد من الذين نجلس إليهم أو نستمع إلى محاضراتهم..

فى يوم الأحد نذهب إلى «الدير الدومينيكى» فى شارع مصنع الطرابيش بالعباسية. فالدير ليس إلا مكتبة كبيرة فخمة - أو هذا هو القدر المسموح به لنا.. وكنا ندرس الفلسفة المسيحية والإسلامية. وكنا نجد كتب المسيحية والإسلام واليهودية فى مكتبة هذا الدير... ونحن نعرف الطريق جيدا إلى هذا المكان الذى لا يجذب العين. فالمبنى له شكل عادى.. الألوان باهتة.. ومثل مسرح الرهبان ليس له إلا لون واحد.. وإن لم يكن فى مثل بياضها ونصاعتها.. وهناك بعض الأشجار. أما الشىء الموجود بوفرة فهو: الهدوء... والصمت... والكتب... والوقت.

حتى الرهبان كانوا مشغولين بدراساتهم وأبحاثهم. ولم يكن أحد ينظر إلينا إلا باسما ومرحبا. ثم يطفىء لفافة تبغه ويعمله... وكنا نشم رائحة الطعام. وكان ذلك غريبا. إنه طعام آخر غير الكتب. ولابد أن للرهبان عرفا للصوم وأخرى للأكل. ولكن كان يدهشنا أول الأمر أن نجد الرهبان يأكلون ويشربون. أو

في صالون العقاد: كانت لنا أيام

لحد راحات يدخلن ويخرجن . وقد اكتست الوجوه كلها بلون واحد : الغدوه والصفاء . وأحيانا الانبهار . والجميع يتحركون بسرعة . فما الذي يفعلونه هنا ؟ كيف يتحركون وقتهم ؟ لا أظن أني فكرت في ذلك كثيرا . فكل ما أعرفه هو أني أذهب للقراءة المكتب الواقعة التي لا أجدها في أي مكان . وأجد الهدوء الذي لم أكن أجده في بيتي في أغلبية في ذلك الوقت . ولأني كلية الآداب أو في مكتبتها العامة . ولأني العلاقات بين الكلية والمكتبة . أو الطريق بين الجامعة والبيت . ولأنه الغرفة المطلة في شقة « الإخوان المسلمين » بالعباسية

وكلما وجدنا أمرا صعبا استدرجنا الأستاذ ليوضح لنا ذلك . وكان يفعل . وهو أول من قدم لأفكارنا اعترافات القديس أوغسطين . ولأعوذه أن يضحك أيضا . فيقول : إنه كان في أعوام دير للراهبات . وكانت الراهبة إذا ظهرت عليها أعراض الحمل نقلوها فورا إلى روما .

وكان الأستاذ يقول : وكانت أعوام صغيرة . وكنا نعرف ماذا يجري فيها . كما نشعر باختفاء إحدى الراهبات . ونعرف السبب . ولذلك كان من عادتنا أن نمشي وراء الراهبات ونقول لهن : ألا تحبين أن نسافر إلى روما يا أخت ؟!

وقبل أن نفرغ من هذه الصورة . ويدهشنا أن يكون أستاذنا العظيم ذلك الشاب الذي يعاكس الراهبات . فجر ضحكة عالية . وضحكنا أيضا . فمسح هذه الصورة

ثم كنا هي عادة الأستاذ يعود إلى أعماق الأشياء . ويقول : . ولكن القديس أوغسطين هو أعظم رجال الدين . الذي بكى بغير دموع . فاعترافاته ليست إلا صورة مروعة لرجل أحب أمه وأحب دينه . أو لأنه أحب أمه . أحب كل الأمهات . وتعذب لها وبها أيضا . والذين كتبوا اعترافاتهم بعد ذلك . قد قلدوه . وإن كانوا قد وضعوا قدرا كبيرا من السفالة حيث وضع القديس . الأحلام العميق والتدم والثورة !

ويضرب الأستاذ مثلا بالمفكر الفرنسي جان جاك روسو الذي كتب عنه د. محمد حسين هيكل باشا . والذي قال به كل الذين اشتغلوا بالسياسة والتربية والذين درسوا في فرنسا . فيقول الأستاذ إن روسو هذا مفكر متوسط القيمة . ولكن آثاره أعظم بكثير منه . فالذي تركه في الثورة الفرنسية . أكبر بكثير جدا وأعظم وأعمق مما كتب . والذين يرونه عظيما يخلطون الأوضاع . فهو ليس عظيما . ولكن آثاره هي العظيمة . وإنما صح أن يقال عن عود كبريت أحرق مدينة . إن هذا العود أعظم من المدينة . فكذلك يقال عن روسو . فأفكاره أعواد كبريت . وبلادها حرائق وثورات .

ولكن كما هي عادة الأستاذ . فإن الذي يقوله أول الأمر ليس هو المقصود . إنما المقصود هو أن يقول إن روسو لم يكتشف عن أفكاره . إنما حاول إخفاءها . فهو يقول مثلا : إن أطفاله قد بعث بهم إلى بيوت اللقطاء — أي على الرغم من أنه لم يتزوج فقد كان له أطفال كثيرون ! ثم يتراجع الأستاذ كما تتراجع البندقية التي وضعها فيها الخرطوش فيطلق قذيفته . إن روسو كان عاجزا جنسيا ولذلك فهو في اعترافاته يؤكد أنه كان ذكرا . « الفحل » صاحب العيال الذين أخفاهم عن العيون في الملاجئ ؟!

وقال لنا الأستاذ . وكان من مظاهر شذوذه أنه إذا رأى الثديات عند البقر . فإنه يتعرى أمامهن . فإذا صرخن كانت هذه متعته الجنسية الكاملة !

ولم وقعت أيدينا على اعترافات روسو بعد ذلك بوقت طويل . لم نجد إلى هذه الحوادث إلا بصعوبة . فقد جاءت في صفحات متأخرة من الاعترافات . وجاءت سريعة .

فإن لم يكن المعنى الذي أراده الأستاذ هو أن نبحث عن الجوانب الإنسانية في كل فلسفة . فنبحث عن الجوانب المضحكة . أو يجب ألا نهز أيدينا وعقولنا ونحن نواجه الصروح الفكرية في أي عصر أو في أية لغة .

وكان يقول . لو عرف القديس أوغسطين بعض الأعشاب التي تنمو في أسوان بصورة شيطانية . ماشكا القديس من الإمساك ولانكت عياءه في كل مرة يذهب فيها لدورة المياه في بعض الأحيان لانعرف إن كان القديس موجوع القلب أو موجوع المعدة .

ثم يلتفت ناحيتي ويقول : إن هؤلاء الفلاسفة الوجوديين يامولانا . ليسوا إلا جماعة نصابين قد أحبوا بالأرق . وبدلا من أن يتناولوا بعض الأقراص المهدئة . فإنهم فرضوا الأرق فلسفة على الجميع . اقرأ حياة هذا الخبل سارتر . وذلك الخنون كيركجورد . وأنت تجد فيها العجب من العلاقات الشاذة بالأب والأم . إن قصة الفيلسوف الدانمركي كيركجورد وخطيبته رجينا . وقصة سارتر ومعشوقته الكاتبة سيمون دي بوفوار واحدة . وهما لايختلفان عن القديس أوغسطين . كل مالديهم أوجاع خاصة . جعلوها عامة . ومصائبات اجتماعية . جعلوها فلسفة .

وكان الأستاذ يذهب دائما من الفيلسوف الفرنسي فولتير . عندما يرفض الكثير من الأفكار المألوفة . ويشكك فيها . ثم يضع أفكارا إيجابية . ولايفرض علينا شيئا .

لقد عرض الكثير وقدمه لنا ولفض عنه الذباب وغسل أيدينا . ولم يبق إلا أن نتناول مائدته .

وأمام مئات الأكواب في مكتبة الدير الدومنيكي ومكتبة الجامعة . وضيق الوقت عن التفكير في كل ماتجمع من معلومات فعلينا وإيانا بن الجامعة والدير . بين أساتذة الفلسفة الإسلامية والمسيحية والرهبان . كان من الصعب أن يكون لأحد منا رأي مستقل أو تفكير خاص . فذلك مالم نكن نفتقر عليه . لقد كنا أقرب إلى النحل . وأحد من النحل . فنحن نكدس المعلومات . ولاتخص رحيقها . ولذلك استشعرت أعضاء الجامعة بالأعباء والمراجع . واختفى منا الاجتهاد أو الرأي الخاص . وطبيعي ألا تكون للسكة أو الفلسفة مكان في هذه الصفحات الجريئة الشقية . فنحن أشقياء ندرس فلاسفة وقديسين قد اشتاقهم التفكير في الله والكون والنفس وهذه الحياة وما بعد الحياة . وكما مثل هؤلاء القديسين . الذين حفظ صورهم . ليس من بينها وجه يضحك . فالضحك رذيلة . أو الضحك ترف لايقدر عليه إلا كبار المشكلات والمفكرين الإبداعيين من مثل الأستاذ العقاد —

العقاد

فولتير

وهالتهم صور الأستاذ التي يبدو فيها ضاحكا . فكل الصور التي التقطت له كانت في تدوته وهو يتحدث . أو في المحاضرات العامة أو أثناء الأحاديث الإذاعية . وربما كانت أروع صور العقاد وأكثرها دلالة عليه ، صورته وهو في طريقه إلى السجن . كأنه ذاهب إلى لقاء محبوبته . وكأنه حاول أن يجعل لقاءه سرا . ولكن لم يفلح . فها رآه الناس جميعا . أحنى قبعته في فرحته بهذا اللقاء للجميع .

وكان الأستاذ يهتم بصوره . وأحيانا يغضب من الصور التي تنشر في مقالاته . قال لي عندما كنت أعمل في « أخبار اليوم » : يامولانا . أنا لا أفهم ماهو المقصود بأن تنشروا في صورة ضاحكة ومقال جاد . وصورة بالطربوش ومقال ضاحك . لابد أن تنبهوا سكرتارية التحرير إلى هذا العبث !

ولكن الذي لايعرفه الأستاذ أن اختيار صورة من صوره لايخضع لهذه المقاييس . إنما سكرتير التحرير يختار أية صورة للمقال . بل يختار « مساحة » فقط . صورة على عمود واحد . أو على عمودين — دون أن ينظر كثيرا إلى هيئة الأستاذ . وليس من الضروري أن يقرأ سكرتير التحرير مقال الأستاذ أو أي أستاذ . إنه يهتم بالشكل العام لعنوان المقال والصورة التي توضع معه . ولم أفلح في إقناعه أن الكثير من الأخراج الصحفي ليس عملا عقليا . إنما هو عمل فني

ولكن عقل الأستاذ لايقبل مثل هذه التفسيرات التي تجعلنا ديكورا وليست نصوصا . وعقله لايقبل أن أحدا لايفكر بعقله . وأن كل مايقوم به هو عمل واضح — تماما كما يفعل هو .

مثلا : عندما أعددت لقاء بين الأستاذ وبين الرجومة أمالي فاضل ليذاع في التليفزيون . تهيأت الرجومة أمالي لذلك اللقاء . ولكني أمضيت وقتا طويلا في تدريبها على لقاء الأستاذ

محمد حسين هيكل

طه حسين وزوجته

وحفظ الأستاذ . وكانت الترجمة أمانى ناشد تلميذتى . فقد درست لها الفلسفة فى الجامعة . وبعد أن تم تسجيل هذا الحديث سألنى الأستاذ عن لقاء أمانى ناشد فقلت : تخرجت فى كلية الآداب قسم الدراسات الاجتماعية . فقاطعنى قائلا ولكنها يامولانا لا تعرف كيف تنطق الأسماء . فقلت : لا تهب الحديث إليك . فقاطعنى : كيف تنبئى وأنا بفسطاط قصير كما رأيت ؟ فقلت : يا أستاذ انها فتاة أولا وأخيرا

قال بسرعة ضاحكا : إنها تصف فتاة لقد صنعت بالأحمر شفة واحدة !

ولم أكن قد لاحظت ذلك ؟ !

ثم نشرت صحيفة الأخبار أن الأستاذ العقاد سوف يتقاضى عن هذا الحديث ٢٠٠ جنيه !

• • •

وفى اليوم التالى حدثنى الأستاذ عاليا غاضبا : ماهذا الذى تنشرونه يامولانا ؟ هل كثير على رجل كالعقاد قرأ مئتى ألف كتاب وأصدر مئتى كتابا وأفنى عمره فى عالم الفكر والفن . أن يتقاضى هذا المبلغ ؟ ان مقهورة مثل فتاة الفسطاط تتقاضى ماهو أكثر من ذلك فى عشر دقائق ! . يامولانا . لماذا يستكثر على العقاد مثل هذا المبلغ التافه . لبلد تافه . وصحافة أكثر تفاهة !

ولم أعرف ما الذى أغضب الأستاذ . واستأذنته فى أن أعود إلى قراءة الخبر . وقرأته . وطلبته التليفونيا : ياأستاذ قرأت الخبر . ولم أجد فيه مايغضبك ..

وازداد غضب الأستاذ قائلا : مامعنى أن توضع علامة تعجب فى نهاية الخبر ؟ . ماهو العجب فى أن أتقاضى هذا المبلغ بينما يتقاضى طه حسين أضعاف ذلك دون أن يتعجب أحد ؟ .. الا ترى أن هذا هو الذى يدعو إلى العجب ؟

ولم أفلح فى إقناع الأستاذ أبدا كثيرا مانضع علامات التعجب دون سبب للقارئ . وأن علامة التعجب . مثل علامتى الاستفهام والتعجب مما ليست لها دلالة خاصة . وأنا نسرف فى ذلك . تماما كما نسرف فى وضع النقط بعد كل كلمة . وليس لذلك إلا تفسير واحد مؤكد . هو أننا لم نتعلم قواعد الترقيم – نحن جميعا !

ولم يقتنع الأستاذ . فكل شىء عنده بالعقل وبالفكر وبالحساب . وكل شىء عن قصد . وقد انهم سكرتارية تحرير « أخبار اليوم » بأنها من المؤكد تضم عددا كبيرا من الشيوعيين . لماذا ؟ لأنهم يضعون له صورة بالطربوش إذا كان مقاله ضاحكا هازلا . ويضعون له صورة بالطاقية إذا كان المقال جادا . ولذلك فهم محررون . ومادامو محررين لمقال الأستاذ وصورته . فهم إذن شيوعيون !

وقد حدث أن اتصل به الحاج عبد الرحمن السقاف . وكان قادما من الملايو . وطلب إليه أن يزوره فى بيته . فأجابه الأستاذ : أهلا وسهلا فى الخامسة .

وكان الحاج عبد الرحمن السقاف قد جاء يشترى من الأستاذ حق ترجمة سلسلة « العبقريات » إلى اللغة الملاوية . ويقال إنه سوف يدفع فى ذلك عشرة آلاف جنيه . ويقال عشرين ألفا من الجنيهات الاسترلينية

وقبل الموعد بدقائق . ذهب الأستاذ إلى الصالون . مرتديا البيجامة والطاقية وقد لف الكوفية حول رقبته . وجلس ينتظر . وعندما لاحظ ان الساعة تدق الخامسة ولم يحضر أحد . نادى ابن أخيه عامر العقاد قائلا : عندما يجىء هذا الرجل الخطوت فقل له إن الأستاذ قد خرج !

إنها الخامسة ولم يحضر الحاج عبد الرحمن . وكان لابد أن يذهب ابن أخيه ويغلق الباب . وعندما ذهب يغلق الباب وجد الحاج عبد الرحمن قد وصل ومعه ثلاثة آخرون . وفتح لهم عامر العقاد الباب ليحذروا الأستاذ بهم بالخروج من الصالون والانتقال إلى غرفة أخرى

فبادره الحاج عبد الرحمن بقوله : نحن مأسفون ياأستاذ الخ

وكان رد الأستاذ : نعم هذه مسألة موجبة للأسف !

ومضى الحاج عبد الرحمن يقول : إن الطريق إلى مصر الجديدة طويل ومزدحم . وهذه أول مرة أزورك فى بيتك وقد ضللنا الطريق الخ

ولم يعد الأستاذ فى كل مقالاته الحاج عبد الرحمن حتى مقتا . إذ كيف يضل الطريق إلى بيت العقاد فى مصر الجديدة ؟ فى الذى لايعرف العقاد أو بيته ؟ . الخلاصة أن هذا المال يكسل واستخفاف بأقدار الناس . ولاشىء يساوى ذلك عند العقاد . لاعشرون ألفا ولا عشرون مليونا !

وجاءت أكواب الليمون وفناجين القهوة . ولم تستغرق المقابلة سوى بضع دقائق . وخرجوا والأستاذ غاضب . ولم ينطقوا على شىء

وفى الليل اتصل بالأستاذ واحد من هؤلاء الذين زاروه مع الحاج عبد الرحمن . وقال له : ياأستاذ إن الرجل قد حماك من آخر الدنيا وهو من أشد الناس إعجابا بك . ثم إنه لم يتأخر عن الموعد سوى دقيقة واحدة . ثم كانت مقابلته القاسية . إن الرجل حزين حقا .

ولم يدعه الأستاذ يكمل عبارته . فقاطعه قائلا : جزى ابه ياأخى . عندما نفشل متأخرا عن موعدنا . وتشغل العقاد عن رياضته اليومية . أنا الذى نتوقعه منى ؟ هل أقيم لك حفلة تكريم . لأنك جئت تتشاور بعض كتبى ؟ .. ماعلى أبرك وأبر . الخ

• • •

أذكر . أننى التقيت مع أحمد الزهار الضرير من الدير الدومينيكى وهو الأب قنواتى . أن نلتقى بالأستاذ . فقد كان من آمال الأب قنواتى أن يترجم بعض دراسات الأستاذ فى الفلسفة الإسلامية . واستأذنت الأستاذ . فقال : الساعة الخامسة يامولانا

ولم أتمكن من الذهاب إلى الأب قنواتى . فقد تعطل الترام فى الطريق إلى العباسية . واعتذرت للأب قنواتى عن التأخير . ووجد الراهب الجليل أن عذرى مقبول . وبعد ذلك سارعت إلى الأستاذ أنقل إليه عذرى . ووجدت باب شقته مغلقا . ولم أجرؤ على دق الباب . وقلت اليوم الثانى لاعتذرت للأستاذ ولأمانى . ولكنه رأى أن القضية قد حسمت . أنا تأخرت عن الموعد فأغلق هو الباب !

وضايقنى سكوته . فقاطعته قائلا : ياأستاذ لم أتمكن من الحضور فى الموعد لأن ..

فضحك مقاطعا : يامولانا ألست مصريا ؟ طبيعى أن تعطل ذلك . وغير الطبيعى أن تجىء فى موعدك . ثم تعال هنا . أنت من المنصورة يامولانا كان يجب أن تجىء فى موعدك !

وهو يقصد أن أهل المنصورة من أصول فرنسية وتركية ! أى أنه لم يقبل عذرى !

وتمنيت لو تعمى هذا الحكم القاسى . أننى قاسمته هذا اللوم العنيف مع كل المصريين !

وفى ذلك الوقت كنا نقف على الحافة . الحافة بين الدير والخروج عليه . وبين الإيمان والخوف منه . أو بين الفلسفة العلمية والتفسير غير المنطق – كانت هذه هى التعبيرات المألوفة عندنا نحن الشبان الصغار من دارسى الفلسفة . وكنا نحاول أن ننقل للأستاذ ترددنا وقلقنا . ومخاوفنا وحيرتنا على الحق . وتأكيد الذات وتضحيتها . وكان الأستاذ يعرف ذلك كله . ويراه طبيعيا . ويعبر عن ذلك كله أحسن وأجمل عندما يقول : إنى أقول للحياة نعم . ولكل شىء آخر لا . وليس من الحياة أن نرفض الحياة . ولاس الحكمة أن نقول لاداعما . ولا ان نقول نعم دائما . ولكن نخطىء كثيرا من يقول لاكثيرا . ونخطىء قليلا من يقول : نعم كثيرا

وكان يشرح فلسفته ويسعه التاريخ والأدب والسيرة النبوية والسياسة والنوادر والنكت أيضا – كل ذلك فى جلسة واحدة وفى قضية واحدة

• • •

وفى يوم الثلاثاء أذهب إلى شعبة الإخوان المسلمين بالمنيرة . وكنت رقيبا أمينا للمكتبة . وكنا نقول طلبة فى الآداب والهندسة والطب والتجارة . ولم يكن بيننا سوى شىء واحد عميق . هو . أنه لايوجد شىء واضح ولاطريق محدد . ولاهدف بارز . إنما التقينا فى محيا أشياء غائرة جوية . أو كانت مجموعة من مهول الخلجات القلقة فى نقطة برليس . هل انهمنا أحد شىء لم يحدث ؟ هل بدلنا الناس . فاحتمينا فى جماعة الإخوان المسلمين ؟ من المؤكد أننا مسلمون نصلى ونصوم . ولكن فقط نريد أن نعرف . نريد أن نفهم . وكنا لا نحد من يقول . ولا من يدلنا على مالذى نحتاج إليه .

أذكر أننى ألقيت قصيدة تناسب « مولد النبى » . وكان يجلس فى الصف الأول فوق سطوح هذه الجمعية الشيخ حسن

في صالون العقاد: كانت لنا أيام

لا أعرف السبب الحقيق من نظم هذه القصيدة. ولا كيف ألقيتها أمام فضيلة المرشد العام حسن البنا. ولا أعرف كم كان عدد الحاضرين. لم يكن أحد من زملائي. وبعد أن فرغت من إلقاء قصيدتي عانقني المرشد العام. ودعا لي بالخير والبركة. وسألني: إن كنت مسيحيا؟

وأدهشني هذا السؤال. وأكدت له أني مسلم.. وقد فاتت أول الأمر أنه استنتج ذلك من اسمي. فهو اسم يمكن أن يكون لمسلم أو لمسيحي. ولكن عندما عدت إلى القصيدة وجدت الكثير من تعبيرات الفلسفة المسيحية وبعض أسماء القديسين وأني استخدمتها دون وعي مني.. وأني في ذلك الوقت لم أكن أحس الفارق بين كثير من المذاهب الفلسفية الدينية المسيحية والإسلامية واليهودية والبوذية. وأني في ذلك الوقت كنت أرى أن الفروق قليلة بين الديانات. وكنت أعتقد أن الدين واحد. ولكن رجال الدين جعلوه كثيرا. ووصفوا إليه طرقا متعددة وأن الله واحد ولكن الناس على مدى التاريخ قد وجدوه كثيرا مختلفا.

وفي إحدى المرات حسم الأستاذ هذه القضية عندما نبهنا إلى العبارة الأولى في كتابه «الله»: إن الإنسان يرتقي في العقائد، كما يرتقي في العلوم.

فقد عبد الشمس، ثم اعتقد أن الشمس تدور حول الأرض، ثم انتهى إلى أن الأرض هي التي تدور حول الشمس.

ورغم ذلك فإن أحدا لم ينكر وجود الشمس..

فالشمس موجودة دائما. وكل الاعتقادات بها صحيحة دائما. وصحتها مرتبطة بعصرها وظروفها.

وقد أكد لنا الأستاذ أن هذه العبارات التي جاءت في الصفحة الأولى من كتابه هذا، هي أخطر ما جاء في كل الكتاب.. لأنه يريد أن يقول إن المفهوم الديني يتغير من عصر إلى عصر، وهو صحيح في كل عصر.. فالذين آمنوا بأن الله صمم، لم يكونوا على خطأ. فهذا أقصى ما يستطيع العقل الإنساني أن يدركه في ذلك الوقت.. والذين يريدون أن الله الثالث والأربعة، فهذا أيضا ما يتفق مع قدرة العقل وطبيعة العصر والمرحلة التاريخية التي يعيشها هؤلاء المعتقدون.. والذين ينكرون وجود الله لابد أن لديهم أسبابا منطقية لذلك.. ومعنى الذي قاله الأستاذ: أن اعتقاد الشبان في مرحلة القلق والحيرة وتكوين الذات والاستقلال بالرأي، مسألة طبيعية.. ولابد أن تتغير هذه الحالة النفسية أو اليقين الفلسفي، إذا ما عرفنا أكثر، وفكرنا أعمق.. وهذا ما سوف يحدث لنا في مرحلة تالية..

وأعتقد أن سبب فصلي من جماعة الإخوان المسلمين في إحدى مع عدد آخر من الزملاء، هو غموض موقفنا.. ولا أظن أنه كان موقفا ما - فالموقف رأي واضح ثابت في كل الظروف. والحقيقة أني كنت أقدر تماما إلى أن يكون في موقف في ذلك الوقت. فأنا أمضي اليوم كله ماشيا على الليل بين إحدى والزمالك وأخيرة. وكانت أفكارنا مثل خطواتنا تتفق وتتسع. وكنا نمشي في كل اتجاه. لأنه ليس لنا هدف واضح. وكانت رءوسنا تدور مع كل الرياح..

ولكني اكتشفت فيما بعد أن السبب المباشر لخروجي هو أني ألقيت خطبة في مسجد الجراجيل بالقرب من إمبابة. ولم أكن واضحا. أو عندما حاولت أن أكون واضحا. لم تكن تعبيراتي مألوفة.. أو كانت اجتهاداتي خارجة على المألوف.

ولست على يقين من ذلك.

ولكن الشيء المؤكد هو أني عندما ذهبت، كالعادة، إلى شعبة الإخوان المسلمين متجها إلى غرفة المكتبة لكي أستذكر دروسي، وجدت منشورا يفصلني أنا وزملائي. وكان التوقيع: المرشد العام حسن البنا..

أما التفسيرات التي قيلت لنا في ذلك الوقت فهي معقولة ولكنها ليست مقنعة. فقيل إننا كنا نستهلك نورا كثيرا، ثم إننا لا ندفع اشتراك العضوية. وهذا صحيح، فلم يكن لنا مكان نلتقي فيه ونتحدث ونذاكر أو نجلس دون أن يجالسنا أحد من بقية الأعضاء، سوى غرفة المكتبة.. ولم يكن هناك أسف على خروجنا. لا نحن أسفنا على ذلك، ولا أحد. فقد مضينا في طريقنا. أو في طريقنا نحن بلا هدف..

ولكن لسوء حظ ذلك. فقد كان لي أصدقاء كثيرون ليسوا جميعا من الطلبة ولكن من المدرسين والمهندسين والشبان التجار. ولم أعد أراهم. هل هم كانوا حريصين على ذلك، أو أن هذا هو شعوري؟.. هل الذي يباعد بيننا هو أن هناك، شيئا، فكريا، أو أن السبب هو أن الدراسة في الجامعة وهمومها وأعباءها قد عزلتني تماما.. وأصبحت أمشي في نفق تحت الأرض، لا يراني أحد ولا أراه؟..

وكان من بين الإخوان أحد الموظفين في محل شيكوريل، قال لي: علاجك عندي..

إذن فأنا مريض. أو لعله لم يقصد أني مريض عقليا أو جسديا.. إنما هو أراد أن يجعل ما سيفعله أو يقدمه لأهمية خاصة.. وهمس في أذني: هذا الرجل الذي سوف أعطيك عنوانه قد قرأ الفلسفة.. كل المذاهب.. واعتدى إلى رأي.. وسوف يشرح صدرك تماما..

سألته: من هو؟ من الإخوان؟

أجاب: لا.. إنه يهودي ويعمل معنا في محل شيكوريل..

اذهب إليه. لقد حدثته عنك كثيرا. وهو ينتظرك غدا في بيته بشارع محمد علي..

ولم أنم تلك الليلة. وكان أبي مريضا. وأعطيت أوراقي في الخلوس إلى جواره. ولم يكن شيئا غير عادي أن أكون هكذا. فأنا أحب أبي وأرى أنه أحد الشهداء.. شهيد مبادئه وأخلاقيات الثورة - وكان يجب أن نتقرض. فهو إنسان طيب إلى غير حد. لم أتمنه يكره أحدا. أو يحقد على أحد. لم أره إلا ضاحكا. ولم أر يديه تتدخلان فيما لا يعنيهما بشيء لأحد من الناس. وعندما مات أبي أحسست أن وفاته مشيئة إلهية. قبل هذا الرجل الطيب يجعلك تواجه وضعا غريبا: أن كل الناس كذابون. وأن كل الناس منحطون وأنهم بخلاء وأنهم حاقدون من الفقر وأنهم حاقدون من التضحية وأنهم لا يؤمنون بالله.. إنه وحده الذي يعطي كل شيء ولا يهاب أحدا ولا يخاف من الأيام.. ولذلك كانت وفاته نتيجة لاستعداء شعبي لأن الناس حريصون على القضاء على الذي يفضحهم ويكشفهم!

وقبل أن يطلع النهار ذهبت إلى شارع محمد علي. وعرفت البيت والشقة ووجدت الوافد مقفلة. ورأيت في الشكوك

حسن البنا

صديق ومقاعد كثيرة. وذهبت إلى أحد المقاهي، وجلست ثلاث ساعات حتى حان الموعد المتفق عليه. ووجدتني أدق الباب، وينفتح الباب ويدفعني هواء بارد. ولم أخرج من الباب أية رائحة: لا طعام ولا شراب ولا الرائحة المألوفة في غرف النوم.

وكان الرجل نحيفا أبيض الوجه طويل الأنف صغير الشارب له أهداب مسحورتان إلى الوراء. خاطبني بالفرنسية قائلا: أنا حالك كوهين.. تفضل..

وأشار أن أدخل، وإلى مقعد بالقرب من المائدة. وجلست واختلس بضع لحظات، وعاد بكتب صغيرة، وكانت أمامي على المائدة كميات كبيرة من الفواكه عرفت فيما بعد أنها صناعية - وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها شيئا كهذا. وخرجت بعد دقائق والكتب في يدي، كأنها هي الأخرى فاكهة جافة. فهي خلاصة الماسونية والبهائية والكتب كلها قد اتخذت موضوعا واحدا هو «الحكمة الإلهية». ولم أعد إليه كما وعدته. فلم أفهم من هذه الكتب شيئا. أو أن الذي فهمته ليس هو الذي أريده.. ولا أدعي أني قد عرفت ما أريده بوضوح في ذلك الوقت!

وما سألت بعد ذلك عن رأيي في هذه الكتب الصغيرة، لم أجد ما أقوله. ولكني اتجهت إلى الأستاذ أستوضحه، فقال: أنت وقعت في يد ذلك النصاب - ثم ذكر اسم جاك كوهين..

وعقبي الأستاذ يقول لنا: إنهم جماعة من الماسون.. لا هي دين ولا هي فلسفة.. إنما هي جمعيات سرية تخدم أهدافا سياسية.. إنهم جماعة من الجواسيس في كل بلد. ويتآمرون على البلد الذي يعيشون فيه..

ثم ذكر الأستاذ عددا من كبار الساسة في مصر. ثم قال: إن الواحد من هؤلاء عندما يحاول أن يتفلسف فإنه يخلط الدنيا كلها ويعقدها ألف عقدة. ثم يحاول أن يحلها واحدة واحدة. فإذا عجز. وهذا طبيعي. أنهم الدنيا كلها بالغموض. ومادام العالم كله غامضا. فليس غريبا أن يكون هو كذلك!

● ● ●

إن أستاذنا العظيم سقراط عندنا عن شيء من ذلك، وهو أن رجلا امتلأ جيبه بحبات القمح، وحاول إحصاءها فلم يستطع. فملأ جيوبه الأخرى في وقت واحد! ليحصي ما فيها جميعا!

وقال الأستاذ: لقد جاءني هنا.. وهو الذي طلب مقابلتي عن طريق صديقنا الأستاذ المازني. ولما استوضحت المازني، قال إنه لا يعرف إلا أن هذا الشخص مفكر ومثقف في فرنسا

سنوات طويلة . جاء هذا النصف وسألني وأجبته . ولكني سألته : أنت عشت في فرنسا طويلا . وتتكلم اللغة الفرنسية ولغات أخرى كثيرة . وعندك حل لكل مشكلة . ولذلك ترى أن الفلسفة هي أفضل الفلسفات . وأنت جئت لتعلمنا دون أن تعرف فلسفتي . لكن . هناك طريقة واحدة لإقناعي وهي أن تحيني عن هذا السؤال . فإذا أجبتني وأقنعني سلمت لك بكل شيء . ولقد رضي الرجل بهذا الشرط . وأسعده ذلك . فقلت له : كيف تفسر أنهم إذا جوزوا أحد الآباء بين أن يكون ملكا بشرط أن يذبح طفله . وبين أن يظل على حاله . فانه يختار أن يبقى على حاله ولا يذبح طفله ؟

قال الأستاذ : أنا الرجل فقد أسعده هذا السؤال . وقال . ليس كل الناس يا أستاذ . أنا شخصيا سأتعمد أن أذبح كل أطفالي لكي أكون ملكا وأتزوج من جديد ويكون لي ماشئت من أطفال !

وكان رد الأستاذ . هذا ما كنت أتوقعه . فلم أكن أتوقع أن تكون أنيانا . ولذلك فإن حضرة الجبوان عندما تصير إنسانا . فتعال إلي مناقشتي !

وتعاتب الأستاذ العتاد صديقه المازني الذي أرسل إليه مثل هذه العينة الفكرية الشاذة . وعما قاله المازني وردده بعد ذلك كثيرا

تقول إنه عاش في فرنسا طويلا ؟ إن حياته في فرنسا ليست دليلا على أنه أكثر الناس فهما لفرنسا والفرنسيين أو للفكر الفرنسي . ولو صح أن العاشرة والألفة هي وحدها التي تجعل إنسانا أكثر فهما للآخرين . لكان حمال هذا يحكم معاشرته لي . أكثر فهما للفلسفة من كثير من أساتذة الجامعات !

ولقد صادق هذا على كثير من الذين يعاشرون الأدباء والفلاسفة . فلم يحسوا التعبير عن حياتهم . إما كانوا يرونهم من زاوية خاصة . زاوية الابن الجاهل . أو الزوجة الغاضبة . أو الأخ الطامع ...

والشاعر العظيم شكسبير هو الذي قال : ان الملك لا يمكن أن يبدو ملكا أمام خادمه ! لأن الخادم يراه عاريا حافيا مريضا غاضبا . أما الذين يرونه بالتاج والصولجان فهم الشعب : الذي أبعد الناس عنه !

أما . شارع مصنع الطرابيش يوم الخميس من كل أسبوع فقد كان غامضا غامضا . فلا أذكر في تلك الأيام أني لقيت أحدا أصبح صديقا فيما بعد . لا أحد . إنما كل الذين يترددون على مدرسة الطائفة الإسرائيلية من الأطفال وبعض الخاخامات . ولم يكن – اثنان آخران وأنا – نعرف من كل أدباء وفلاسفة اليهود سوى عدد قليل جدا . ربما كان أبرزهم جميعا الفيلسوف موسى من ميمون . الذي عاش طبيبا خاصا للسلطان صلاح الدين . وألف كتابا اسمه « دلالة الحائرين » . وقد كتبه باللغة العربية ولكن بحروف عبرية . وكان الكتاب ضروريا لنا في ذلك الوقت ونحن نتعلم اللغة العبرية . ولا أخفي أننا تقدمنا كثيرا في دراسة اللغة العبرية . ولا أخفي أن فهم موسى من ميمون . فهم فيلسوف يهودي مشغول بأعقد القضايا التي جاءت في التوراة والتلمود . وله اجتهادات خاصة – أي تفسيرات جديدة في الديانة اليهودية التي لم نكن نعرفها جيدا في ذلك الوقت .

وأسماء أخرى في الفلسفة اليهودية كانت معروفة لدينا . الفيلسوف الهولندي اسبينوزا . وفلاسفة الأندلس مثل ابن جابيرول وهالي ومعلمنا وغيرهم .

رجل واحد لا أذكر اسمه الصغير . إنما أتذكر اسم عائلته . إنه « بورجيال » . كان يسكن في الزمالك . ربما في شارع الكامل محمد . وربما في شارع أحمد حشمت . ليست هاتان الأذن . والرجل لابد أنه من أغنى أغنياء اليهود المصريين الآن . قابلته في إحدى المكتبات . وأخذ يسألني أسئلة لقد رأيته في مدرسة الطائفة الإسرائيلية . ماالعمل ؟

وسألني إن كنت من طائفة « القرائين » – أي من اليهود المصريين . فقلت له . إني أتردد فقط ولم أقرر شيئا بعد فليس عندي وقت .

والحقيقة أنه ليس لضيق الوقت لم أقرر شيئا . ولكن لأني لم أعرف ماالذي يمكن أن أدرسه . ثم إن أحدا في هذه المدرسة لم يوجهني إلى شيء . كما أني ذهبت فقط لكي استطلع . لعلي أعرف .

وأدهشني مرة أخرى أن يكون التحي مشتركا مع المسيحيين واليهود . فمن اليهود من طائفة القرائين أسماء مثل : عبد الرحمن وعبد العزيز .

كما أني اكتشفت فيما بعد أن واحدا له نفس اسمي كان زوجا لفنانة يهودية اسمها « جريس منصور » . أصدرت ديوانا بالفرنسية في جزءين اسمه « صرخات » وهو شعر جنسي فاضح . وهي ابنة داود عدس . وقد هاجرت من مصر إلى فرنسا . وانضمت إلى الحزب الشيوعي .

أما الذي أدخلني هذه المدرسة فأحد أعضاء « جمعية المفكرين الأحرار » . إنها جمعية ألحادية وغير طائفية في مدرسة المنصورة الثانوية . كنا [illegible] نسخر ونهزأ ونسلم . ولا أعرف الأسباب الواضحة التي [illegible] تكوين جمعية غامضة الأهداف . وفي نفس الوقت فيها كثير من الادعاء . أنها جمعية فكر [illegible] .

ولكن ماذا ترجد هذه الجمعية [illegible] ومن هم أعضاؤها ؟

لاشيء من ذلك يمكن الإجابة عنه . إنها هي جمعية نقسمها على الثلاثة . بعلم ماالذي تحن بصدده . فالكثير جدا الذي يقرأه لأجسام . لكل ما يقرأ كتابا أو يسجل شيئا من خواطره . ثم يقرؤه علنا . ولا أذكر أنه ناقشنا . إنما كنا نستمع إلى بعضنا البعض . وكنا نتحلق في موضوع واحد هو أعلنا الوجود . أن نكون من أعضاء الأزهر الشريف . فقد أسلم اسمي واليهودي . هكذا فجأة . ولم نناقش في أسباب ذلك . « نحول الآذان إلى الشيوعية » . ولما وصلنا الخامسة انهينا إلى الإلحاد . ولما تخرجنا في الجامعة أصبحنا ملاحدة واليوم الآخر . وواحد منهما الآن لا يفارق مسجد سيدنا الحسين .

• • •

وفي يوم ذهبنا متفرقين إلى الأستاذ . وكنت قد دعوت الآخرين إلى ذلك .

وأدهشني أنهم لم يجدوا في الأستاذ العقاد ماأجده أنا . سألت واحدا منهما : هل هذا الذي قاله الأستاذ عن معجزات الأنبياء . وبما قاله الأستاذ عن المرأة والفرق بين الحب والعشق . والذي قاله الأستاذ عن الديمقراطية في بريطانيا والفاشية في إيطاليا وألمانيا وروسيا . هل كل ذلك شيء مألوف ؟ .. هل هو مألوف بهذه البساطة ؟ .. هل رأيت رجلا تجمعت له العظمة والعزة والكبرياء والبساطة كما وجدت عند العقاد ؟

أجاب أحد الصديقين : إني لا أجد الراحة بعد . إنه أب يرتشف كوب عرقسوس . ومترس يركب كوب فيلسوف . وفيلسوف يركب كوب فقير هندي . وفي يده كوباج يشوي به طيور الجالسين جميعا وأنت منهم !

وقال الثاني : إني أشعر ببرودة شديدة . برودة الجليد والصقيع . ولكني أفضل الذين في مثل سني . وفي مثل سنك . أو جهل . والذين إذا تكلموا تعلموا . وفكروا وترددوا . وتحيروا . ولكني العقاد لايتعلم ولايفكر . إنما الكلام يخرج من فمه ورقا مطبوعا . ويدخل في أذنيك دون إذن منك . إني تعودت على رجال الدين . وتعودت على الشيوعيين . هذا السبب وكذلك على أني رأيي .

وكانت الزيارة الأولى والأخيرة للذين الصديقين .

ولاأدعي أني كنت على مستوى الأستاذ أو قريبا من ذلك . ولكنه أحد أعمدة النور في طريق . أحد رجال المرور إذا ازدحمت الرءوس وتوقف سير الفكر فيها . بل لم يكن فقط أحد رجال المرور . بل إنه أحد الذين شقوا الطرق ورصفوها وأضاءوها . وهو عندما تخرك دراجته يمينا وشمالا . فكثيرا مارتطمت بوجوهنا . وكان سوء الظن يجعلنا نقول : صلعا . وحسن الظن يؤكد أنه شجعنا على المضي .

وكنا نحسن الظن به دائما . بل لم يكن هذا الذي نحسن به في حضرته فقط . إنما هو يقين وبرهان وبيان . أما الظن فقد كان زادنا اليومي في كثير من المحاضرات الجامعية . ثم كانت هذه « الدوحة » فعلا التي وصفها زميلي في جمعية المفكرين الأحرار ..

في مهب الأستاذ كنا نتعلم أنفسنا . كما تحدث في مواجهة العواصف . فزور الجاكتة وتعطي الصدر والرقبة والرأس أيضا . ثم تكتشف وتتأسف وتتساءل .. فما معنى ذلك ؟ معناه أن الإنسان عندما تهب عليه الريح فإنه يحاول أن يجعل « الساحة » المعرضة من جسمه أقل .

أما الدورة التي تحدث عنها زميلي في جمعية المفكرين الأحرار فسبقها أيضا أن الأستاذ يجردنا . يعري . من كثير من الأفكار الدافئة .. أي الأفكار التي نتغطى بها ونحس كأنها بشرة ثانية . ومن بين هذه الأفكار أن تكون هناك جمعية للتفكير أو للتأمل .. إن اجتماعات تتنافى مع التفكير الحر .. وتتنافى مع الإبداع .. فالتفكير عام والإبداع فردي .. والناس يتشابهون في أفكارهم . ولكنهم يختلفون في أجسامهم . يختلفون في نظرتهم على التفكير وعلى العلاقات وعلى الأشياء .

والأستاذ من أشد الناس إيمانا بالتفكير الانجليزي توماس كارليل الذي يؤمن بأن التاريخ يصنعه الأبطال . وأن البطل هو القوة المحركة للتاريخ . وأكثر ماكتبه الأستاذ عن الأبطال أو عن العباقرة الذين هم نوعية فريدة بين الناس . فالانسان العظيم يظهر فجأة دون مقدمات وراثية أو اجتماعية أو أخلاقية . فالأستاذ نفسه شيء فريد في أسرته وفي بلده . ولذلك يسخر الأستاذ من الجمعية والجماعة والمدرسة الأدبية والفلسفية . ويرى أن الطل أو العبقري هو الطاقة والمدرسة وباطن المدرسة . ليست له مقدمات وليس له أتباع .

ولذلك فليس أدعى للضحك – يقول الأستاذ – من أن يكون الإنسان حرا وفي نفس الوقت حريصا على أن يكون عضوا في جمعية ليكون له فكر مستقل عن الجمعية . أي فكر حر ..

ولم يدر الأستاذ أنه أجهز على الجمعية روحيا في أعضائها . ولم يترك لنا مهمة السير في جنازتها !

لم يبق بعد هذا كله إلا ماكنا نقرؤه ونتندر على الإعجاب به ..